لقد عطلا تماماً عن العمل وحل محلهما الهوى الذي لا يغني من الحق شيئاً ، بإغراء من الشيطان الرجيم وإغواء .

وهكذا يتبين أن هذا النوع السيء من الاتباع ، للكافرين دور كبير في تحقيقه لأنهم باختصار لم يصدقوا وعد الحق أو ضعفوا عن الامتثال لأوامره ونواهيه وصدقوا وعود الشيطان الرجيم المعسولة التي لا أول لها ولا آخر . وقد أشارت سورة ابراهيم في أسلوب القرآن المعجز إلى سخرية الشيطان الرجيم واستهزائه بهذا النوع من الناس . قال تعالى[1] :

﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي . إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

فإذا تحولنا إلى النوع الثاني من الاتباع وهو الخاص بالمؤمنين المتقين والذي أشار إليه القول : «وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم» فإن هذا هو النوع من الاتباع المحمود المطلوب ولا ينبغي أن يفهم أن هذا النوع من الاتباع معناه الانقياد الأعمى ، وذلك بتعطيل نعم الله تعالى على الإنسان عن العمل . وكيف يمكن أن يتبادر فهم كهذا وإن القرآن الكريم وحده فيما يزيد على الأربعين موضعاً يحث على استعمال العقل والانتفاع بنعمة التفكر . لا ، إن هذا ليس المقصود بالاتباع إنما المقصود بالاتباع أن على المسلم لله رب العالمين أن يستفيد من كل نعم الله تعالى عليه وأن ينتفع من كل آيات الله تعالى الدالة على قدرته المطلقة جل وعلا وعظمته سواء أكانت في نفس الإنسان أم في خارج هذه النفس . وفي مقدمة هذه النعم التي ينبغي على الإنسان أن يستعملها أوسع استخدام وأحسنه ، نعمة العقل والإرادة اللتان امتاز الإنسان بالجمع

---

(١) سورة إبراهيم ٢٢ .

بينهما وبالقدرة على استعمال هاتين النعمتين وفق الوجهة التي يريد ، بعد أن بين الله تعالى له طريق الخير كي يتبع وطريق الشر كي يجتنب .

وإذا كان الكافر من ذي قبل قد أساء استعمال نعم الله تعالى وفي مقدمتها العقل والإرادة حيث حل محلهما الهوى المتبع والظن المطاع فإن المسلم لله رب العالمين عليه أن يستعمل عقله أكبر استخدام وأحسن استخدام. ان رجال الكنيسة مثلاً إذا كانوا قد أعلنوا من قديم الزمان إن صدقاً وإن كذباً بأن الدين عدو للعقل[1] فإن الإسلام حث هذا العقل على أن يفجر كل طاقاته الرهيبة في سبيل الكشف عن الحقيقة . وما أكثر المواضع في القرآن الكريم[2] والحديث الشريف التي تدعو إلى استعمال العقل تلك النعمة العظمى ، وبعد أن يعرف العقل الحدود التي ينبغي له أن يقف عندها والميادين التي لا ينبغي له أن يرتادها لأنها أبعد من مداه فإن هذا العقل مهما كان عميقاً غوره فإنه ينتهي دائماً وأبداً إلى أن الخير كل الخير في اتباع تعاليم السماء التي ائتمن الله تعالى عليها رسوله الكريم ﷺ . ومن هنا كان اتباع الحق من الله تعالى هو الاتباع المحمود المطلوب، لأنه اتباع عن بصيرة نافذة وعقل نير وفكر حر ونفس مشرقة . وكلما ارتادت البصيرة والعقل والفكر والنفس واحداً من أبعاد الإسلام العميقة كان لديها جميعاً الاعتقاد بأن ثمة الكثير والكثير من الأبعاد النبيلة التي هي بحاجة إلى مواصلة المجهود للوصول إليها . ويكون ذلك بعون الله تعالى عن طريق تعاون أجزاء الجسم كلها ، بقصد الوصول إلى تلك الحقائق . إن العقل والنفس والجسم ، بحاجة إلى التعاون الكامل من أجل تحقيق الهدف الذي خلق من أجله الإنسان وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . إن للعقل ميادينه وينبغي ألا يرتاد الميادين التي يذهب مجهوده فيها هدراً ، بل عليه

---

(١) انظر هنا رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٣٣ ـ الطبعة السابعة عشرة.

(٢) انظر هنا رسالة الشهيد حسن البنا «الله في العقيدة الإسلامية» ص ١٢ .

أن يتيح فرصة العمل للوسيلة الأقدر على ارتياد الميادين التي يعجز على ارتيادها العقل الجبّار وليكن ذلك عن طريق البصيرة النيرة والنفس المشرقة . إن العقل في أمس الحاجة إلى العون الذي تقدمه له كل من البصيرة والنفس . فعن طريق هذا العون يستطيع بفضل الله تعالى أن يوقن بعالم الغيب ويستطيع مثلاً أن يحول بين هوى النفس وبين أن تأتي من الأفعال والأعمال ما يتأذى به الجسم والروح معاً . فعلى سبيل المثال يعرف الإنسان بعقله أن الإفراط في الطعام مؤذ . وهنا يحتاج العقل إلى الإرادة التي تجعل قرارات العقل نافذة . ويعرف الإنسان أن الخمر حرام لأنها مؤذية للإنسان من جميع جوانبه المعنوية والحسية ، فلماذا يضعف البعض عن مقاومة الإغراء لأم الكبائر ؟ لأن الهوى تغلب على العقل والإرادة .

ومن أهم ما يلاحظ على منهج التربية القرآنية أنه يتجلى فيه التوازن العجيب بين عمل كل من الجسم والعقل والنفس أو الروح . إن كلاً من هذه الجوانب له نصيبه المساوي لغيره من العناية ودوره المساوي لغيره في ميدان العمل وإذا كان اتباع الباطل مذموماً وينبغي إطراحه وكان اتباع الحق محموداً وينبغي التمسك به فإنا نود أن نقف بشأن اتباع الحق عند نقطة مهمة هي أن المسلم لله رب العالمين تقف حدوده عند مجرد اتباع ما أمر الله تعالى به وأمر رسوله واجتناب ما نهى الله تعالى عنه ورسوله .

إن الاتباع في هذه الحالة ينبغي أن يطبق بحذافيره فليس من حق مسلم لله رب العالمين واحد أن يبتدع ، إنما عليه أن يتبع ويتبع فقط وقد قال عز من قائل[1] : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ومعروف أن الإسلام قادر دائماً وأبداً على تلبية متطلبات الحياة المتطورة المتغيرة . ومعروف أن مصادر التشريع هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والإجماع والقياس والاجتهاد .

---

(١) سورة الحشر ٧.

إن للاجتهاد رجاله . وإن باب الاجتهاد في الإسلام مفتوح بشروطه إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها .

وإذا كنا عرفنا الباطل بأنه الشيطان الرجيم وهوى النفس الأمارة بالسوء فإنا نستطيع أن نعرف الحق من الله بأنه القرآن الكريم . لقد جاء في الآية الكريمة هذه عن المؤمنين ﴿**وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم**﴾ وقد جاء في الآية السابقة عن القرآن الكريم ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم**﴾ لقد وصف القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ بأنه الحق من رب المؤمنين . وإن المعنى ذاته يتكرر في الآية الكريمة التالية .

وتأمل إضافة التشريف والتكريم للذين آمنوا في القول في الموضعين «من ربهم» إن لفظة الرب كما عرفنا تستعمل حينما يكون الجو عابقاً بشذى الرضا والسعادة والانشراح . وإن الإضافة في الموضعين تتم في هذا الجو العطر فهنيئاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات هنيئاً .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة ﴿**كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ استطعنا أن نقول : إنها بمثابة الدرس الذي ينبغي أن يستفيد منه كل الناس ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم . لقد بيّنت أولى الآيات طبيعة الذين كفروا وإحباط أعمالهم . كما بيّنت الآية الثانية طبيعة الذين آمنوا وثواب أعمالهم . وقد بيّنت الآية الثالثة في الجزئيتين الأولى والثانية السبب في إحباط أعمال الكافرين وفي تكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم . وها نحن أولاء مع الجزء الاخير من الآية الكريمة الذي تكمن فيه العبرة . فبما أن حديث الآيات السابق ينطبق على كل الناس باعتبارهم إما مؤمنين وإما كافرين ، فكأن كل فريق يستطيع أن يفهم طبيعة الحياة التي يحياها والمصير الذي ينتظره يوم القيامة ، وكأن فيما سبق تبييناً للمثل وللشبه الذي يوافق كلًّا من المؤمن والكافر ، البر والفاجر ، قال تعالى ﴿**كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ والمعنى

أن القرآن الكريم ، كلام رب العالمين في مثل هذه الطريقة المعجزة من التعبير يبين للناس برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم أحوال الذين يوافقونهم عملاً وحياة ومصيراً من البارين والفاجرين ، المؤمنين والكافرين كي يستزيد المؤمنون المتقون من الإيمان والتقوى وكي يبتعد الكافرون عن الكفر والفجور لأن وراء هذه الحياة حياة أخرى فيها الحساب وفيها الثواب والعقاب.

ومعنى يضرب الله الأمثال ، يصف ويبين ، ومعنى ضرب الأمثال اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به[1] والضرب المثل والشبيه وجمعه ضروب ، يقال : عندي من هذا الضرب شيء كثير أي من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال . . . ويقال : هذا من ضرب ذلك أي من نحوه وصنفه والجمع ضروب . . . وضرب الله مثلاً أي وصف وبين . وقولهم : ضرب له المثل بكذا إنما معناه بين له ضرباً من الأمثال أي صنفاً منها[2] ، ويقول ابن جرير الطبري[3]: «يقول عز وجل : كما بينت لكم أيها الناس فعلى بفريق الكفر والإيمان ، كذلك نمثل للناس الأمثال ونشبه لهم الأشياء فنلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً» .

ويلاحظ أن الآية الكريمة في جزئيتها الأخيرة تستعمل لفظ الجلالة «الله» وليس لفظ الرب لأن المقام مقام عموم لكل الناس وليس مقام خصوص يناسبه كما سبق أن عرفنا لفظ الرب . كما يلاحظ أن الجزئية الكريمة تستعمل لفظ الناس . فالخطاب لكل الناس بلا استثناء رغم تفاوت درجات الإيمان ودرجات الكفر . وتختم الآية الكريمة بالضمير العائد إلى الناس مظهراً من مظاهر عناية

---

(١) اللسان «ضرب».

(٢) اللسان «ضرب».

(٣) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٦.

القرآن الكريم بكل الناس لأنه هو الذي يهدي للطريقة التي هي أقوم . ومظهراً من مظاهر تكريم الله تعالى لجنس الإنسان كي يستمر المصيب في طريقه وكي يهجر المخطيء طريقه إلى طريق الفلاح والهدى .

وبعد توضيح كل من الطريقين يعتبر كل مسؤولاً عما صدر عنه من خير أو شر . جاء في حق القرآن الكريم قوله تعالى[1] : ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً**﴾ وجاء بشأن مسؤولية الإنسان عن كل ما صدر عنه من خير أو شر قوله تعالى[2] : ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ وقال تعالى : ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ .

---

(١) سورة الإسراء ٩، ١٠ .

(٢) سورة الإسراء ١٣، ١٤ .

القِسمُ الثَّاني

معاملة الأسرى في الإسلام

قال تعالى : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾.

إن أول ما نود التنويه به بشأن الآية الكريمة الأولى هو أن ضرب الأمثال الذي ختمت به آخر آيات القسم السابق استتبعه ضرب المؤمنين المتقين رقاب الكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى . وإن أول ما نود الوقوف عنده بعد ذلك هو القول «فإذا لقيتم» ولا يخفى أن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان متضمن معنى الشرط فكأن هذه الآية الكريمة تشير إلى لقاء المؤمنين بالكافرين وجهاً لوجه من أجل القتال في كل زمان فهل ثمة إشارة أخرى في القرآن الكريم تشير إلى اللقاء ذاته ولكن في كل مكان ؟ إن الإشارة موجودة في سورة براءة في قوله تعالى[1] :

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم

---

(١) سورة براءة ٥ .

واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾.

أما القول : «لقيتم» فإن هذه الجملة تشير إلى اللقاء الفعلي الذي يتم بين المؤمنين والكافرين وجهاً لوجه في ميدان المعركة . المؤمنون يقاتلون في سبيل الله ، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت. وما العمل الذي يواجه المؤمنون به الكافرين ابتداءً؟ القتل، حز أعناقهم، وإطارة أعضائهم، وإطاحة جوارحهم . وإن هذا العمل الذي يواجه المؤمنون به الكافرين ابتداء وهو قتلهم كيفما اتّفق يعني أن ثمة الكثير من المراحل السابقة لقتل أعداء الله تعالى في المعركة قد تجاوزها السياق للعلم بها بداهة . ونستطيع أن نوجز تلك المراحل في كونها إعداد القوة لأعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين وحسن استعمالها أما إعداد القوة فقد أشار إليه قوله تعالى من سورة الأنفال[1].

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

وإن من متممات إعداد القوة حسن استعمالها وإنما يكون الاستعمال ساعة الحاجة بعون الله تعالى صحيحاً ، حينما يكون الجند مهيئين لذلك بدنياً ونفسياً جثمانياً ومعنوياً مهيئين لتحويل تمارينهم السابقة شبه الحية إلى أعمال إيجابية يرهبون بها عدو الله تعالى وعدوهم . إنه ليس ببعيد عن أذهاننا ما خص به المصطفى ﷺ من النصر بالرعب مسيرة شهر في الخصال الخمس التي لم يعطهن[2] أحد قبله ﷺ وإن من أهم متعلقات النصر من جانب كتائب الإيمان ، ذلك الإيمان العجيب الصفة الذي يتحلى به المؤمنون المسلمون لله

---

(١) آية ٦٠.

(٢) صحيح البخاري ١ ـ ٩١ باب التيمم.

رب العالمين ذلك الإيمان الذي جعل القائد المسلم المنقطع النظير الذي لم يهزم قط خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، يستف متوكلاً على الله تعالى عالماً أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، سم اللحظة الذي جاء به سفير أهل الحيرة من أجل استعماله في حال فشل سفارته إلى القائد المسلم المظفر . ولم يحدث بإرادة الله تعالى شيء من سوء للقائد الخالد الذي لم يقو سم اللحظة بإرادة الله تعالى على أن يفقده وعيه فضلاً عن أن يسلبه حياته يقول ابن الأثير[1] «وكان مع ابن بقيله (سفير أهل الحيرة) خادم معه كيس فيه سم . فأخذه خالد ونثره في يده وقال : لم تستصحب هذا ؟ قال : خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت . فكان الموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي . فقال خالد إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها . وقال : باسم الله خير الأسماء رب الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم . وابتلع السم فقال ابن بقيلة والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا».

لقد كان خالد بن الوليد ، القائد المظفر كثيراً بالله تعالى ، وهو الذي خاطب واحداً من الجند وقد هاله كثرة الروم وقلة عدد المسلمين قائلاً «والله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد . وكان قد حفى في مسيره»[2] ولا ننسى أن خالد بن الوليد يصل لتوه من العراق إلى اليرموك في الشام قاطعاً بجيشه الصحراء الشامية في مدة وجيزة ما زال المتخصصون متحيرين في تخيلها متعرضاً لأشد المخاطر[3] .

ويحضرنا في المقابل دليلاً على كون السلاح وحده لا يجدي ما لم يصحبه الإيمان ، ما حاق بالإيطاليين في الحرب العظمى الثانية من خزي الأبد وعاره ، حينما ثبت أنهم يعتبرون أنفسهم أسعد الناس حظاً حينما يمن عليهم خصومهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ ـ ٣٩١ حوادث سنة اثنتي عشرة من الهجرة.

(٢) الكامل لابن الأثير ٢ ـ ٤١٢ .

(٣) انظر الكامل لابن الأثير ٢ ـ ٤٠٧ فما بعدها.

بمنحهم الحياة الذليلة المهينة في الأسر وبالتالي هم يقدمون لهؤلاء الخصوم في المقابل أشد الأسلحة فتكاً وبطشاً تلك الأسلحة التي جبنوا عن استعمالها . وما يقال عن الإيطاليين يقال عن الفرنسيين الذين لم يستحيوا من الفرار لأول ضربة جادة يتلقونها خوفاً على خمارات باريس ومواخيرها . إن إجادة صنع السلاح واستخدامه ينبغي أن يسيرا في خط مواز لقوة الإيمان النامية بإذن الله تعالى في سبيل استعادة المسلمين لله رب العالمين بالقوة ، القدس وفلسطين ، وسائر المقدسات الإسلامية ولو فرض أننا نحن المسلمين قد وهمنا أن الزمن بعد ليس في صالحنا فينبغي أن نعمل جاهدين مستعينين بالله تعالى كي نجعل الزمن في صالح ذرارينا كي يقوموا بالواجب الذي عجزنا نحن عن القيام به . إنه لا يليق بنا ، وقد عجزنا عن ولوج طريق العزة والكرامة عن طريق الجهاد في سبيل الله تعالى أن نحرم أبناءنا هذا الشرف العظيم . ولا أقل من أن نهيء لهم من جانبنا الوسائل والسبل التي تساعدهم على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة التي يأمرنا ديننا الحنيف بالقيام بها .

إن المسلمين لله رب العالمين المتقين تصورهم الآية الكريمة الآن أمام أعداء الله تعالى الكافرين المجرمين . فما المطلوب من المؤمنين أن يفعلوا وقد واجهوا في ميدان المعركة الكافرين وجهاً لوجه . إن الآية الكريمة لا تقنع من المسلمين لله رب العالمين بأقل من أعلى صور التمكن من الأعداء . أعداء الله تعالى والانتصار عليهم . إنه حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه[1] . قال تعالى : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**﴾ .

من المعروف أن التمكن بالسيف من رقبة الخصم لحزها، يعتبر ممثلاً لأعلى درجات التمكن منه خاصة إذا عرفنا أننا الآن لسنا بصدد خصم يقتل

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٧ وتفسير القرطبي ص ٦٠٤٦.

صبراً بأن يؤتي به يرسف في قيوده وأغلاله، ويحمل على أن يقبع على ركبتيه وقد شدت يداه إلى خلفه فيتيح لقاتله أن يتمكن منه . إننا الآن بصدد خصم يريد بخصمه ما يريد به من قتله كيفما اتفق . ويعتبر الكفاح بالسيف أعلى مراحل التمكن من الخصم والتوفيق في القضاء عليه .

إن هذه المرحلة التي تعتبر أعلى المراحل وأرفع المراتب : هي التي يحرص القرآن الكريم على حمل المسلمين للوصول إليها . وكي نتبين أبعاد هذه المرحلة العالية نود أن نستعرض أهم طرائق القتال في العصر الذي نزل فيه القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين . ويحضرنا بهذه المناسبة تصوير لزهير بن أبي سلمى أحد شعراء المعلقات في العصر الجاهلي لهذه المراحل مادحاً هرم بن سنان بالشجاعة . إن شجاعة هذا الممدوح تدفعه دائماً إلى الاقتراب الأكثر في ميدان المعركة من خصمه وبذلك يضطر خصمه إلى الاقتراب بدوره منه . ويكون ذلك الاقتراب عن طريق التحوّل المستمر من وسيلة القتال التي تجعله بعيداً من خصمه بعداً ما إلى الوسيلة التي تجعله أكثر قرباً . وبقدر ما يمكّنه هذا القرب من خصمه يقرّبه هو في المقابل لولا شجاعته وبراعته من حتفه . إن هذا الممدوح غاية في المهارة والكفاءة إضافة إلى الشجاعة والبسالة يقول[1] :

ليث بِعَثّر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا
يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

فهذا الممدوح أسد من آساد عثّر ولكنه أسد رجال ويفضل الأسد في كونه يشد على أعدائه دائماً وأبداً . بينما الأسد يكذب وينكص. وإن خصوم هرم في المعركة حينما يلجأون إلى رمي النبال، ومعروف أنها يرمي الخصم بها وهو بعيد لذا فهي كما قالوا بمنزلة المنايا التي تخطيء وتصيب، لذا فإن هرماً الشجاع

(١) مختار الشعر الجاهلي ١، ٢٥٠ وعثر بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره راء مهملة موضع وهو مأسدة أي كثير الأسد وهو باليمن بينه وبين مكة عشرة أيام. «معجم البلدان».

الحكيم ، يلجأ إلى وسيلة القتال الّتي تعمل مع البعد المحدود وتحمل الخصم على الدنو . وهذه الوسيلة هي الرمح الذي يتم به طعن الخصم بطريق مباشر بسبب قرب هرم منه . وإن هذا البعد المحدود بين هرم الشجاع حينما يستعمل رمحه وبين هدفه في مقابل البعد البين بين خصمه الأقل شجاعة وبين هدفه . وإن استعمال هرم لرمحه يغري خصمه بل يرغمه على أن يلجأ إلى الرمح فقديماً قيل : إن الرمح بمنزلة الأخ . وهنا يحرص هرم على أن يكون أكثر قرباً من خصمه فيترك الرمح الذي هو بمنزله الأخ ولكنه قد يخون بانكساره. ويلجأ إلى آلة القتال الأكثر احتمال فتك بالخصم والتي تندر خيانتها بانكسارها والتي تحمل مستعملها على أن يكون قريباً كل القرب من خصمه كي تثكل أحد الخصمين ــ أو كليهما ــ أمه . أما آلة القتال هذه فهي السيف الذي تتم به المضاربة . ويرغم هرم خصمه على أن يلجأ إلى استعمال السيف . وهنا تكون من هرم آخر مراحل القرب من الخصم وآخر وسائل القتال على الإطلاق بأن يحتضن خصمه ويعانقه عناق السباع المتهارشة . ويلاحظ أن شجاعة هرم التي تمثلت في عناقه خصمه قد عطلت عمل سيف الخصم فيرمي بسيفه كي يحتذى بهرم . إن الرمى يكون بالنبل ، وان الطعن يكون بالرمح . وإن الضرب يكون بالسيف . أما العناق فليس وراءه سوى الجلد بالخصم أرضاً وحز عنقه بالسيف حزاً .

وإذا كانت آية سورة محمد عليه الصّلاة والسلام تشير إلى ضرب الرقاب الذي يمثل أعلى درجات التمكن الباطش بالخصم فإن آية سورة الأنفال تشير إلى أعلى درجات التمكن هذه بالضرب فوق الأعناق وإلى الدرجة التي لا تكاد تبتعد عن ذلك شيئاً ذا بال حينما لا يتمكن من رقبة العدو فتقطع أطرافه التي يقتل بسببها أو يثخن بالجراح فلا يستطيع النهوض للقتال فضلاً عن مواصلته، قال تعالى[1]:

---

(١) سورة الأنفال ١٢ ـ ١٤.

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان [1]، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله. ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾.

وإن آية سورة محمد الكريمة تحث المسلمين على أن يكونوا دائماً وأبداً مستعدين لأن يخوضوا مع قوى الكفر والشرك أشرس المعارك وأظهرها وأن يعملوا جاهدين بكل الوسائل على أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. إن هذا هو المنتظر من المسلمين لله رب العالمين فينبغي أن يكونوا دائماً في المستوى الرفيع الذي شاء رب العزة لهم أن يكونوا أعزة فيه. ولا يكون شيء من ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى والاستعداد الدائم لبذل الغالي والرخيص. الأرواح والأموال في سبيل الله أسمى الغايات وأنبل المقاصد رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يقول الطبري [2] «فإذا لقيتم الذين كفروا بالله ورسوله من أهل الحرب فاضربوا رقابهم» قال ابن عباس: «الكفار المشركون عبدة الأوثان، وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي. إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة، ذكره الماوردي. واختاره ابن العربي. وقال وهو الصحيح لعموم الآية فيه [3]. وضرب الرقاب مصدر يدل من اللفظ بفعله [4] «أصله فأضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه. . على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير

---

(١) أي أطراف اليدين والرجلين «الجلالين».
(٢) تفسير الطبري ٢٦ - ٢٦.
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٠٤٥.
(٤) تفسير الجلالين.

القتل بأشنع صوره وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه»[1].

ويفهم من القول: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» أن أول ما ينتظر من المؤمنين وأهم ما ينتظر منهم، وقد التقوا في ميدان المعركة بالكافرين وجهاً لوجه، أن يطيروا رؤوسهم من على أجسادهم كما بينا. وبتطور آلات القتال خلال العصور وتغيرها تدخل بقوة في الاعتبار أشد الآلات فتكاً. فعلى المسلمين أن يصنعوا أسلحتهم بأنفسهم معتمدين على الله تعالى ثم على أنفسهم. وأن يحسنوا استخدام أنواع الأسلحة استخداماً ممتازاً مستعينين بالله تعالى.

وبما أن العادة جرت في المعارك أن يكون بجوار القتلى من أثخنتهم الجراح وأنهكت قواهم وأعجزتهم عن النهوض فضلاً عن معاودة القتال أو مواصلته فليس كل من مسه السلاح قضى عليه بالكلية. وبجوار هؤلاء وأولئك من تمكن منهم اليأس من أن ينالوا ظفراً إضافة إلى أولئك الذين خافوا من القتل أو الإثخان أو الأسر فلاذوا بالفرار ولكن بعضهم حيل بينهم وبين التمكن منه. لذا فإن القرآن الكريم وقد انتصر جند الله تعالى نصراً مؤزراً يرشدهم إلى طريقة التعامل مع الذين أثخنّهم الجراح، أي الذين أوهنتهم وأثقلتهم حتى أذهبت عنهم النهوض، والذين غلبوا وقهروا[2] بأن على المسلمين أن يحكموا شد ما يوثق به الأسير كي لا يفلت ويتمكن هو ومن في حكمه من معاودة الكرة.

ويلاحظ أن قتل الأعداء ارتبط بالالتقاء وجهاً لوجه في ميدان المعركة كي يرهب عدو الله وعدو المؤمنين فيعيد التفكير في موقفه الخاطىء من الدعوة إلى

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٧.

(٢) انظر اللسان «ثخن».

صراط العزيز الحميد. أما وقد وهن الأعداء بجرح أكثر عدد ممكن من الذين نجوا من القتل وتمكن الضعف والوهن منهم فالمطلوب من جند الله تعالى أن يمسكوا عن القتل وعن الإجهاز على الجرحى وأن يأسروهم بل أن يحكموا وثاقهم كيلا يفلتوا. ومعروف أن المسلمين لا يلجأون إلى قتال الأعداء إلا بعد أن يستنفدوا وسائلهم في الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة أما وقد آتت هذه الوسيلة وسيلة قتال الأعداء أعداء الله تعالى أكلها بأن عز المسلمون بالانتصار وذل الكافرون بالهزيمة بعد أن قتل من الأخيرين من قتل وأسر من أسر فإن القرآن الكريم يشير إلى طريقة التعامل مع هؤلاء الأسرى وقد انتهت المعركة بانتصار المسلمين.

طريقة معاملة المسلمين للأسرى:

قال تعالى: **﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾**.

إن على المسلمين وقد انتهت المعركة بعون الله تعالى وفضله بانتصارهم على عدو الله وعدوهم أن يمنوا على الأسير فيطلق سراحه مجاناً ودون أخذ أي مقابل.. أو أن يأخذوا من الكافر الأسير الفداء في هيئة إطلاق سراح أسرى المسلمين أو في هيئة المال أو في هيئة غيره مما يعود على المسلمين بالنفع والفائدة. إنَّ كلاًّ من المن والفداء دليل القوة والعزة، فليس المن إلا العفو بعد اقتدار. فعلى سبيل المثال من المصطفى ﷺ على سيد بني حنيفة وأحد ملوك اليمامة هو ثمامة بن أثال الحنفي [1] فقال له ﷺ: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: إن تقتل تقتل ذا دم. وأن تمنن تمنن على شاكر وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت [2] فأمر الرسول ﷺ بإطلاقه. فأعلن إسلامه [3]. لقد من المصطفى ﷺ

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٧ والبحر المحيط ٨ ـ ٧٤ وتفسير القرطبي ص ٦٠٤٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٣.
(٣) مجلة الفيصل ص ٥٢ من العدد الأول للسنة الثانية.

على سيد اليمامة هذا بأن فك أسره دون مقابل وإنما يلجأ إلى العفو بعد مقدرة الكرام. وإن الفداء دليل القوة والعزة لأن فيه العوض من مال أو نفس وفي كلٍّ قوة للإسلام وعزة. قال تعالى:

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾.

والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به[1] ويقال: «أثخنته الجراحة أوهنته[2]». وفي حديث أبي جهل: وكان قد أثخن أي أثقل بالجراح[3] ويقول أبو حيان[4]: «حتى إذا أثخنتموهم أي أكثرتم القتل فيهم». وهذه غاية للضرب ومنا وفداء مصدران منصوبان بفعلهما مضمرين أي فإما تمنون منا أو تفدون فداء[5]. وهو فعل يجب إضماره لأن المصدر جاء تفصيل عاقبة.. فعامله مما يجب إضماره ونحوه قول الشاعر:

لأجـهـدن فـإمـا درء واقـعـة تخشى وإمـا بلوغ السؤل والأمل

أي فإما درء واقعة وإما أبلغ بلوغ السؤل[6]:

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد اكتفت هنا بشأن الأسير بالنص على المن والفداء فقط والمعروف أن ثمة حالين آخرين للأسير، يستفادان من سنة المصطفى ﷺ التي تعتبر تبييناً للقرآن الكريم وتوضيحاً لغامضه وتفصيلاً لمجمله وهاتان الحالتان هما القتل والاسترقاق.

وإن هذه المسألة بحاجة منا إلى شيء من توضيح.

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٧ والبحر المحيط ٨ ـ ٧٤.

(٢) و (٣) اللسان «ثخن».

(٤) البحر المحيط ٨ ـ ٧٤.

(٥) الكشاف ٣ ـ ١٢٧ وتفسير القرطبي ص ٦٠٤٦.

(٦) البحر المحيط ٨ ـ ٧٤.

معروف أن قتال أعداء الله تعالى يمثل الحلقة الثالثة من حلقات التفاهم مع الكافرين. ونحن نود هنا أن نفصل بين مشركي الجزيرة العربية وبين سواهم. إن مشركي الجزيرة العربية رغم دعوة المصطفى ﷺ لهم إلى الإسلام بكل وسائل الحكمة والحسنى مدة ثلاثة عشر عاماً فإنهم لم يزدادوا بزعامة كفار مكة إلا نفوراً واستكباراً في الأرض ومكر السيء حباً في العناد لذات العناد والمعارضة لذات المعارضة. وهؤلاء بعد نزول سورة براءة وهي من آخر سور القرآن الكريم نزولاً [1] لم يكن أمامهم سوى أن يسلموا أو أن يقاتلوا من قبل المسلمين قتالاً مريراً حتى يسلموا [2] لأن هؤلاء الذين بقي فيهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعوهم إلى دين الله تعالى حتى كاد يتوفاه الله تعالى دون أن يستفيدوا شيئاً من مشكاة النبوة لا يرجى منهم خير مطلقاً. وقد بينت الآيات المتقدمة من سورة براءة طريقة التعامل مع هؤلاء المشركين. في ضوء هذا الواقع نستطيع أن نفهم قول مجاهد: ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق [3] وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «فإذا لقيتم الدين كفروا فضرب الرقاب» إلى آخر الآية قال: الفداء منسوخ نسخها فإذا انسلخ الأشهر الحرم.. إلى كل مرصد قال: فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا حرمة بعد براءة وانسلاخ الأشهر الحرم [4].

فإذا تحولنا خارج الجزيرة العربية تبينا أننا بصدد أهل الكتاب وسواهم والمعروف أن هؤلاء جميعاً يدعون إلى الإسلام وبذلك يكونون إخوة للمسلمين فإن أصروا على دينهم طلب منهم أن يدفعوا الجزية وهي مبلغ بسيط من المال

---

(١) انظر مثلاً الإتقان في علوم القرآن ١ ـ ٤٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وانظر أيضاً كتاب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي بشأن براءة.

(٢) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربيّة لأبي الحسن الندوي ص ١٤ ـ ١٥.

(٣) الكشاف ٣ ـ ١٢٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٦.

يدفع سنوياً مقابل حماية المسلمين لدافعي الجزية من أي اعتداء. فإن عجز المسلمون عن الدفاع لا تدفع الجزية وإن كان العجز بعد الأخذ للجزية أعيدت الجزية إلى أصحابها. فإذا أصر الخصوم على عدم الدخول في الإسلام وعلى عدم دفع الجزية ينذرون بالحرب ويعطون مهلة مدتها ثلاثة أيام يتدبرون فيها أمرهم. فإن أصر الخصوم على موقفهم قاتلهم المسلمون وبذلوا مهجهم رخيصة في سبيل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولو فرض أن المسلمين لم يراعوا تمام المراعاة مدة الإنذار وانتصروا على أعدائهم انسحبوا من الأماكن التي احتلوها كي يتيحوا الفرصة لخصومهم كي يروا رأيهم ويتفقدوا أحوالهم وإليك هذا النص من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير[1] أثناء ذكر بعض سيرة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين «قال طفيل بن مرداس: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السريّ أن اعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين. وإن كان منقطعاً به فأبلغه بلده. فلما أتاه كتاب عمر قال له أهل سمرقند: قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدم منا وفد على أمير المؤمنين فأذن لهم فوجهوا وفداً إلى عمر فكتب لهم إلى سليمان: إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم. فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة. قال فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي. فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة. فقال أهل الصغد: بل نرضى بما كان ولا نحدث حرباً وتراضوا بذلك».

لقد أمرت آية سورة محمد المسلمين بأن يضربوا رقاب الكافرين في ميدان

---

(١) ٥ - ٦٠.

المعركة. حتى إذا أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين بعد أن قتل من قتل وجرح من جرح، وهزم أعداء الله تعالى، أمر المسلمون بأن يكفوا عن القتل وأن يحكموا وثاق أعداء الله تعالى وأعداء رسوله. وقد أشارت الآية الكريمة إلى حالتين للأسير كما سبق أن بينا أن يمن عليه بالحرية بأن يطلق سراحه دون مقابل أو أن يطلب منه الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين أو بما فيه مصلحة للمسلمين. وتبقى كما قلنا حالان أخريان. القتل أو الاسترقاق لم تتحدث عنهما الآية الكريمة. ونود بين يدي حديثنا عن هذه المسألة أن نشير إلى عدة نقاط:

١ ـ لقد قدمت الآية الكريمة في الذكر المن على الفداء وكأن هذه الحالة أفضل الحالتين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الآية الكريمة لم تشر إلى الاسترقاق ولا إلى القتل بشأن الأسير عرفنا قيمة المن على الأسير الغالية وكونها أفضل الحالات الأربع.

٢ ـ المعروف أن الإسلام شرع للعتق ولم يشرع الرق فقد كان الرق آنذاك قانوناً عالمياً معترفاً به من قبل جميع الأمم. ولم يكن ثمة إحساس في أي مكان أو زمان قبل الإسلام بالتفكير في ضرورة رفع مكانة الرقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان. وجاء الإسلام كي يعيد إلى هذا الرقيق إنسانيته. فما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى عتق الرقاب. إن عتق الرقاب من الكفارات لبعض الذنوب، ومن الحسنات التي يتقرب بها إلى الله تعالى. وإن الإسلام كعادته في القضايا الاجتماعية المتغلغلة في أعماق المجتمعات كالربا وشرب الخمر والتعامل بالرقيق يؤمن بالحلول المتدرجة فهو مثلاً لم يحرم الربا ولا الخمر دفعة واحدة لتمكن هذين الداءين من المجتمع العربي آنذاك. وفيما يتصل بالرق الذي كان معترفاً به في كل مكان. الإسلام شرع لعتق الرقيق وقد نجح الإسلام فيما أراد. بينما لم تنجح أمريكا مثلاً في القضاء على الرقيق حينما أرادت في عهد إبراهيم

لنكولن أن تتخـــلص منه دفعة واحدة لعدم استعداد الرقيق بعد لاستعادة شخصيته الذاتيـــة كي يتهيأ للاعتماد على نفسه دون الاستعانة بالآخرين. فعاد الرقيـــق الذي تحرر جسده لا نفسه وروحه يرجو ويلح في الرجاء في أن يقبلـــه مرة أخرى الذين حرروه من رق الجسد لأنّه عاجز عن كسب لقمة عيشـــه.

وبصرف النظر عن الدافع الذي من أجله حرر الرقيق في أمريكا إذ يقال إنه بدافع اقتصادي بحت وليس إنسانياً فقد كان الجزء من أمريكا الذي يتركز فيه الرقيق أكثر رخاء من الجزء الآخر الذي ليس فيه رقيق يسخره فلكيلا يحدث الاختلال بين أجزاء المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وما إلى ذلك نبتت فكرة تحرير الرقيق كي يتحقق للمجتمع اتزانه. أقول: بصرف النظر عن هذا الهدف فالمعروف أن أمريكا فشلت فشلاً ذريعاً تجاه تحرير الرقيق تحريراً فورياً فشلها تجاه تحريم الخمر في حين نجح الإسلام في تحرير الرقيق وفق منهجه الحكيم المتدرج وفي القضاء على الخمرة وفق المنهج ذاته الذي رفع ضمير الفرد إلى المستوى الذي يجعله مستعداً لتقبل كل الأوامر والنواهي من لدن الحكيم الخبير وكله رضا وسعادة في الامتثال لتلك الأوامر والنواهي لأنه يعرف أن الخير كل الخير في الاتباع المطلق.

إنه كما قلنا يكفي أن يعرف حينما شرع الإسلام للعتق أن قضية الرق آنذاك لم يكن يشعر أحد مطلقاً بأنها قضية تستحق أن تشغل أي بال، لأنها كما عرفنا تخضع للقانون الذي يتعامل بالرقيق، ومع ذلك، فإن الإسلام أولاها عناية كبرى ووضع أسس المنهج الذي حينما يطبق يؤدي إلى التحرير الكلي للرقيق كما هو الواقع العملي بعد ذلك.

وكي نعرف المدى البعيد لاهتمام الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه النبي الإنسان بالرقيق في سبيل حصوله على إنسانيته

في إمكاننا أن نقف على آخر وصية له ﷺ قبيل مغادرته هذه الحياة ولحوقه بالرقيق الأعلى، كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة: الصلاة وما ملكت أيمانكم حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه. يقول علي رضي الله عنه أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم [1].

وإنما لم يحرم القرآن الكريم بصريح العبارة الرق كما حرم الربا والخمرة والميسر وما إلى ذلك لأن أطراف النزاع الأخرى في صراعها مع المسلمين كانت تسترق المسلمين الذين يقعون في أيديهم أسرى. فمن غير المنتظر أن يحرم الإسلام على المسلمين أن يسترقوا أسراهم في الوقت الذي يسترق خصوم الإسلام أسرى المسلمين. ومع ذلك فإن الإسلام قد شرع العتق. وحينما طبقت تعاليم الإسلام وحينما لم يعد الخصوم يسترقون أسرى المسلمين لم يوجد أحد من الرقيق في كل البلاد الإسلامية.

وبما أن الإسلام. لأنه حق، في صراع مستمر ودائم، مع خصومه لأنهم يمثلون الباطل، ومعروف أن الصراع الدائم بين الحق والباطل من سنن هذا الوجود. وبما أن هؤلاء الخصوم الذين اعتادوا استرقاق أسرى المسلمين يعاملون المواطنين من ذوي اللون الأسود الذين استرقوهم من ذي قبل معاملة لا تختلف في جوهرها عن معاملة الرقيق ويكفي أن تعرف معاملة الزنوج السيئة في أمريكا والحيلولة بين هؤلاء الزنوج وبين أن يكونوا في الكنائس في الصفوف المتقدمة بل أن يرتادوا الكنائس أو حتى المطاعم المخصصة لأصحاب اللون الأبيض. لذا فنحن لا نستبعد مطلقاً أن يعود مثل هذا النوع من البشر الذين ضعفت في نفوسهم أواصر الأخوة الإنسانية إلى استرقاق الآخرين. وكيف يستبعد شيء كهذا ونحن تفاجئنا حالياً الصحف الفينة بعد الفينة بفضائح للأوروبيين في

---

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص ٣٤٣.

ميدان الرق؟ هذا ما ظهر وما خفى كان أعظم. وإليك ما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد بشأن معاملة زنوج أمريكا هذه الأيام [1] : «وتنطوي القرون ويتكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى في التاريخ الحديث.

إن وصايا الإسلام في مسألة الرق خولفت كثيراً. وكان من مخالفيها كثير من المسلمين. ولكن الإسلام ـ على الرغم من هذه المخالفة المنكرة ـ لا يضيره ولا يغض منه قضاء [2] التجربة العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الأرقاء وجناية الآخرين من أتباع الأديان الكتابية.

فالقارة الأفريقية ـ في بلاد السود ـ مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة منذ مئات السنين. ولم تفتح للنخاسين من الغرب إلا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الأطلسي في العالم القديم والعالم الجديد.

وفي أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعاً من العبيد السود تبلغ عدة الباقين من ذريتهم ـ بعد القتل والاضطهاد ـ نحو خمسة عشر مليوناً في الأمريكيتين. عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة في القارات الثلاث منذ أكثر من ألف سنة. وهو فارق جسيم بحساب الأرقام يكفي للإبانة عن الهاوية السحيقة في التجربة العملية بين النخاستين. ولكنه فارق هين إلى جانب الفارق في حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد فإن في الأمريكتين إلى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية وليس في بلاد الشرق أمة من هذا القبيل لأن الأسود الذي ينتقل إليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد له مالهم وعليه ما عليهم بغير حاجة إلى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير [3].

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٢٤ الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م مصر.

(٢) قضاء هنا بمعنى حكم.

(٣) وانظر كتاب شبهات حول الإسلام. محمد قطب فصل الإسلام والرق.

٣ ـ في ضوء معرفة النوع من المعاملة الذي استحق كفار الجزيرة العربية بحيث لم يقبل منهم بعد نزول سورة براءة إلا الإسلام وإلا فالقتال وفي ضوء معرفة ثمرة هذا المنهج الإسلامي التربوي وقد آتى أكله بحيث تحولت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها مسلمة لله رب العالمين استطعنا أن نفهم رأي مجاهد [١] «ليس اليوم من ولا فداء وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق» وقول ابن عباس الذي ذهب [٢] إلى أن الآية الكريمة منسوخة نسخها قوله تعالى في سورة براءة [٣] ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد** ﴾. يقول ابن عباس [٤] «فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا حرمة بعد براءة وانسلاخ الأشهر الحرم» أما عند أبي حنيفة فأحد أمرين: إما قتلهم وإما استرقاقهم أيهما رأي الإمام. ويقولون في المن والفداء المذكورين في الآية: نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ [٥] وهذا الرأي قاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج [٦].

وقد ذهب وراء ذلك كثير من العلماء [٧] بل أكثرهم [٨] إلى أن الآية الكريمة محكمة وليست منسوخة [٩]. وهذا هو رأي الطبري مثلاً الذي قال في تفسيره: [١٠] «والصواب من القول عندنا في ذلك إن هذه الآية محكمة غير

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٦.
(٣) آية (٥).
(٤) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٦.
(٥) الكشاف ٣ ـ ١٢٨.
(٦) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٣.
(٧) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٧.
(٨) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٣.
(٩) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٧ وابن كثير وانظر تفسير الطبري ص ٦٠٤٨ مثلاً.
(١٠) ٢٦ ـ ٢٧.

منسوخة. وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بينا في غير موضع في كتابنا أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة. أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ وإلى القائمين بعده بأمر الأمة وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى وذلك في قوله [1] ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾.. **الآية** بل ذلك كذلك لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب. فيقتل بعضاً ويفادي ببعض ويمن على بعض. مثل يوم بدر قتل عقبة بن أبي معيط وقد أتى به أسيراً. وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سلما وهو على فدائهم والمن عليهم قادر. وفادي بجماعة أسارى المشركين الذين أسروا ببدر. ومنَّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم».

وإذا كان الطبري قد قال: «وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية الكريمة لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى» فالملاحظ أن هذه الآية الكريمة قد تحدثت عن قتل هؤلاء الكافرين ولكن ساعة اللقاء ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾.

وأما الشافعي فيقول: «للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمن» [2] «ومذهب مالك أنه مخير في واحد من هذه الأربعة وفي ضرب الجزية» [3].

---

(١) سورة براءة آية ٥. وفي الأصل «اقتلوا».

(٢) الكشاف ٣ ـ ١٣٨ وانظر ابن كثير ٤ ـ ١٧٣.

(٣) البحر المحيط ٨ ـ ٧٤.

ومن العلماء الذين ذهبوا إلى أن الآية الكريمة محكمة وليست منسوخة من قال: إن الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط. ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم، بل له أن يقتله إن شاء لحديث: «قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر»[1] يقول القرطبي[2] «قتل النبي ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا. وفادى سائر أسارى بدر ومنَّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده. وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين. وهبط عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبي ﷺ ومنَّ عليهم وقد منَّ على سبي هوازن. وهذا كله ثابت في الصحيح وروى عنه عليه السلام أنه فودي منه رجلان من الكفار برجل مسلم[3].

٤ ـ بعد استعراض آراء العلماء في الآية الكريمة تبين أن جمهور العلماء يرون أن الآية الكريمة محكمة. وأن الإمام مخير في كل حال. وقد قال بهذا الرأي كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم وهو الاختيار كما يقول القرطبي في تفسيره[4].

وبما أن السنة النبوية المطهرة مبينة للقرآن الكريم وبما أنه في ضوء التجارب مع خصوم الإسلام لا يستبعد أن يلجأ خصوم المسلمين إلى استرقاق أسراهم فليس هذا بمستغرب من أناس ماديين ضعف حظهم من جانب الروح والإحساس بالإخوة الإنسانية على النحو الذي نرى في عصرنا ففي ضوء ذلك ورغم أنه لا يوجد في العالم الإسلامي شخص واحد مسترق فإنا نرى أن من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٣.
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٠٤٨.
(٣) البحر المحيط ٨ ـ ٧٤.
(٤) ص ٦٠٤٨.

حق الإمام أن يختار ما يعتقد أن فيه صلاح المسلمين. وإنا نرى أن في تخصيص الآية الكريمة المن والفداء بالذكر تفضيلاً لهما على ما سواهما وتفضيلاً للمن على الفداء. ولا يلجأ إلى القتل إلا لمصلحة يراها الإمام. ولا يلجأ إلى الاسترقاق إلا إذا لجأ خصوم الإسلام إلى استرقاق أسرى المسلمين كما حصل في القديم إن المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة. وقد قال تعالى[1]: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ وقد فعل المصطفى ﷺ كل ذلك.

فيما يتصل بالمن عرفنا أنه ﷺ بعد أن أسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة فربطه بسارية المسجد أطلقه فأسلم[2] وهبط عليه في صلح الحديبية سبعون متسلحون يريدون غرته فأسرهم ثم من عليهم[3] ورد ﷺ سبي هوازن عليهم بعد القسمة[4].

وفيما يتصل بالفداء فالمعروف أنه ﷺ فادى أسارى بدر بمال وقال: لو كان المطعم بن عدي[5] حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له[6] واستوهب ﷺ من سلمة بن الأكوع جارية نفله إياها أبو بكر في بعض مغازيه فوهبها له فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناساً من المسلمين. وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل[7] وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد

---

(١) سورة الأحزاب ٢١.
(٢) زاد المعاد ٢ ـ ٧٤.
(٣) زاد المعاد ٢ ـ ٧٤.
(٤) زاد المعاد ٢ ـ ٧٥.
(٥) دخل المصطفى ﷺ مكة بعد عودته من دعوة ثقيف في جوار المطعم: انظر السيرة النبوية ١ ـ ٣٨١.
(٦) زاد المعاد ٢ ـ ٧٤.
(٧) زاد المعاد ٢ ـ ٧٥.

الأنصار الكتابة وهذا يدل على جواز الفداء بالعمل كما يجوز بالمال [1].

وفيما يتصل بالقتل فالمعروف أنه ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط من الأسرى. وقتل النضر بن الحارث من الأسرى أيضاً لشدة عداوتهما لله ورسوله [2] وأنه بعد ما جرى للمسلمين في أحد ما جرى وبلغه عليه السلام أن أبا سفيان يريد أن يكر على المدينة المنورة مرة أخرى لاستئصال البقية الباقية من المسلمين خرج الرسول ﷺ إلى القوم حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال [3] وأخذ رسول الله ﷺ في جهة ذلك.. أبا عزة الجمحي. وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر ثم منَّ عليه فقال: يا رسول الله أقلني. فقال رسول الله ﷺ: والله لا تمسح عارضيك [4] بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين. اضرب عنقه يا زبير فضرب عنقه. قال ابن هشام وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت فضرب عنقه [5].

وفيما يتصل بالاسترقاق فقد كان هديه ﷺ أن من أسلم قبل الأسر لم يسترق وكان يسترق سبي العرب كما يسترق غيرهم من أهل الكتاب [6] وكان ﷺ يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها ويقول: من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة، وكان يؤتى بالسبي فيعطي أهل البيت جميعاً كراهية أن يفرق بينهم [7].

ويبقى بعد ذلك سؤال هو: ما هو المدى الزمني الذي يستمر فيه معاملة

---

(١) زاد المعاد ٢ ـ ٧٥.
(٢) زاد المعاد ٢ ـ ٧٥.
(٣) السيرة النبوية ٢ ـ ١٠٢.
(٤) العارض: صفحة الخد.
(٥) السيرة النبوية ٢ ـ ١٠٤.
(٦) زاد المعاد ٢ ـ ٧٥.
(٧) زاد المعاد ٢ ـ ٧٦.

الكافرين في هذه الصورة من قتل وشد وثاق فمن أو فداء؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾. والمراد تضع الحرب أوزارها وأحمالها وأثقالها بأن تنتهي الحرب فعلاً لأنه يرتبط بها عادة الكثير من الويلات والمشاق والتضحيات التي لا يطيقها إلا الرجال وقد عبر عن كل ذلك بالأوزار والوزر الثقل ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال[1]. وإنا لنتساءل متى تضع الحرب أوزارها بين المسلمين والكافرين؟ تضع الحرب أوزارها بين المسلمين الأعزاء بالإسلام لله رب العالمين الأقوياء كما أراد الله تعالى لهم، المستعدين لبذل كل نفس ونفيس في سبيله تعالى، وبين الكافرين حينما يدخل الكافرون في الإسلام أو أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ومتى يتحقق ذلك؟ بعد أن يدخل المسلمون في قتال مرير مع هؤلاء الكافرين الذين رفضوا اعتناق الإسلام ورفضوا دفع الجزية وأصروا على القتال والحيلولة بين المسلمين وبين أن يدعوا عباد الله تعالى للدخول في الدين الذي رضي الله تعالى لعباده وحرموا عباد الله تعالى حرية اختيار الدين الذي يريدون دون أي تدخل خارجي في أي صورة من الصور. إن المسلمين لله رب العالمين لا يريدون أكثر من أن تتاح لهم حرية الدعوة إلى دين الله تعالى، إنَّهم لا يكرهون أحداً مطلقاً على اعتناق الإسلام على نحو ما أشار إلى ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة[2] ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وفي الوقت ذاته ينبغي لهم ألا يسمحوا لأي قوة في الأرض أن تحول بينهم وبين حرية الدعوة إلى صراط العزيز الحميد وألا يسمحوا لأي قوة أن تحول بين عباد الله تعالى وبين اختيار الدين الذي يرغبون بمحض إرادتهم في اعتناقه.

أما وقد جنح خصوم الإسلام إلى السلم فالمطلوب من المسلمين أن

---

(١) تفسير القرطبي ٦٠٤٩.

(٢) آية ٢٥٦.

يجنحوا إليه كذلك. قال تعالى [1]: ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله. إنه هو السميع العليم** ﴾.

ويلاحظ أن الجنوح للسلم ينبغي أن يبدأ من الطرف الآخر وليس من جانب المسلمين ومن أهم شروط الجنوح للسلم أن يتاح للمسلمين الدعوة إلى الله تعالى دون حائل أو عائق من قبل أعداء الله تعالى وأن يتاح لعباد الله تعالى حرية الاعتقاد المطلقة الفعلية. جاء في حق هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قوله تعالى [2] ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ وقوله تعالى [3]: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾.

إن الحرية الكاملة يجب أن تكون من حظ كل عباد الله تعالى. ووقتها سيدخل في دين الله تعالى أفواجاً كل عباد الله تعالى العقلاء الذين ينتفعون بنعم الله تعالى عليهم وفي مقدمة هذه النعم العقل والإرادة اللذان أحسن الناس استعمالها. ومن هو العاقل الذي يفهم الإسلام على حقيقته ولا يعتنقه وهو الدين الذي أكمله الله تعالى لعباده وأتم به النعمة ورضيه لخلقه. ومن هنا يتبين أن المسلمين في كل وقت ينبغي أن يكونوا أقوياء في كل من جانب العقيدة أو الإيمان وجانب القوة أو السلاح. إن هاتين القوتين ينبغي أن تكونا غاية في التوازن وغاية في السمو.

ونحن إذا نظرنا إلى عدد المسلمين بالقياس إلى غيرهم فإنا نتبين أن أتباع هذا الدين الذي وعد الله ووعده الحق بأن يظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، يبلغ عددهم زهاء خمس سكان الكرة الأرضية. وهذا معناه أن

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١.
(٢) سورة البقرة ١٩٣.
(٣) سورة الأنفال ٣٩.

المسلمين ينتظرهم الكثير من المجهود والكثير من التضحيات كي يتحقق وعد الله تعالى بإظهار هذا الدين على الدين كله ولو كره المشركون. حقاً إن هذا الدين ينتشر بقوته الذاتية في المقام الأول رغم كل محاولات التشويه والتضليل. ولكن هذا الانتشار بعون من الله تعالى وتوفيق سيكون أكثر امتداداً حينما يكون المسلمون أقوياء بسبب اعتصامهم جميعاً بحبل الله تعالى وعدم تفرقهم، في المجالين المذكورين العقيدة والسلاح.

وإن لنا أكبر دليل على ما نقول في انتشار الإسلام في فجر الإسلام وصدره حينما طبق المسلمون الأولون تعاليمه التي يعتبر الجهاد في سبيل الله تعالى ذروة سنامه فانطوت تحت أقدامهم الأرض ورضى أمم البلاد التي وصل إليها الزحف الإسلامي أو الإنقاذ الإسلامي أن تتخلى بسعادة وانشراح عن معتقداتها ولغاتها وثقافاتها وحضاراتها كي تعتنق دين الإسلام الذي رضي الله تعالى لعباده وتحتضن اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتسهم مع إخوانها المسلمين في بناء صرح الإسلام الثقافي والحضاري. إن انسياح المسلمين الذي ليس له نظير قبل ولا بعد معجز وإن عمق الآثار الحسنة التي صاحبت هذا الانسياح معجز كذلك.

إن المسلمين حينما يتاح لهم أن يدعوا إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة فإن هذه الإتاحة من صميم أهدافهم ووقتها سيدخل بإذن الله تعالى الناس في دين الله أفواجاً. ولكنا نعلم يقيناً إن المسلمين لا تتاح لهم دائماً هذه الفرصة. لقد علمنا ذلك من الواقع الذي نبهنا إليه القرآن الكريم وحذرنا بأن الصراع سيكون قوياً بين الحق أي الإسلام بقرآنه وبتعاليم أشرف المرسلين وبين الباطل بظلماته وشبهاته وعناده. إن أهل الباطل لا يرضون أن يصدوا عن سبيل الله تعالى فقط ولكن بأن يردوا من أسلم لله رب العالمين عن دينه إن

استطاعوا، جاء في سورة الرعد [1] قوله تعالى: ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً. ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾. وجاء في سورة البقرة إشارة إلى الصراع الأزلي العنيف بين قوى الخير والإيمان وبين قوى الشر والطغيان قوله تعالى [2]: ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾. وجاء في سورة النساء الإشارة إلى أن أولياء الشيطان مستعدون للقتال وللتضحية بأرواحهم فضلاً عن أموالهم في سبيل الباطل. قال تعالى [3]: ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾.

إن الإسلام بطبيعته دين حركي. قادر بعون الله تعالى على أن يغزو الوهاد والنجاد وأن يجوب الآفاق ويعبر البحار ويفهم من هذا أن خصوم الإسلام لن يتركوه وشأنه كما لم يتركوه من قبل يوماً من الأيام وشأنه وهذه الحقيقة أوضح من أن تحتاج إلى تدليل عليها. ويكفينا أن نقول في هذا الصدد بشأن الفترة الراهنة إن ضحايا أكثر المشكلات العالمية في الوقت الحاضر هم المسلمون ولا يكاد المسلمون ينتهون من مشكلة حتى تصادفهم مشكلة أخرى أو مشكلات. حقاً إن ذلك يعود إلى ضعف المسلمين في المقام الأول فهم الذين أغروا أعداءهم بأن يتمادوا في تربص الدوائر بهم ومع ذلك فإن حظ المسلمين من المشكلات بالقياس إلى أمثالهم من الضعفاء هو الأكبر لأن خوف الخصوم

---

(١) آية ١٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٧.

(٣) سورة النساء ٧٦.

من الإسلام هو الأكبر ولأنه معلوم جيداً أن المسلمين حينما يستعيدون بإذن الله تعالى قوتهم فلن تستطيع أن تقف في طريقهم قوة في الأرض. لذا فإن خصوم الإسلام أحرص الناس على أن يضعوا العراقيل في طريق المسلمين وأن يكبلوهم بمختلف القيود والأغلال. هذا بالإضافة إلى مختلف أنواع الحروب الموجهة إلى المسلمين والتي تستهدف شخصيتهم فتذيبها في هيئة الانصراف عن التمسك بدينها والتكالب على الشهوات وحب الدنيا وكراهية الأعمال الجادة فضلاً عن الجهاد في سبيل العقيدة والمبادىء والمثل بالنفس والنفيس. إن خصوم هذا الدين يريدون للمسلمين أن يكونوا ضعافاً دائماً ولم يسعف هؤلاء الخصوم على النيل من المسلمين كالمسلمين أنفسهم بسبب تفرق كلمتهم وعدم اعتصامهم جميعاً بحبل الله تعالى. وهذه الحقائق معناها أن على المسلمين الغيورين على إسلامهم وأمتهم الكثير والكثير من المجهودات والتضحيات، لأن الجبهات الداخلية والخارجية متعددة والأدواء متنوعة ومختلفة الطبائع وأن للمسلمين طريقاً واحداً لاستعادة مجدهم الغابر. التمسك بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم سيد المرسلين ﷺ. ومن حسن حظ المسلمين لو أنهم جميعاً يفقهون أن طريق النجاح والسعادة واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. ومع ذلك هم يختلفون ويختلفون ولا يعرف شخص واحد حكيم لم كل هذا الاختلاف أو بعضه والقرآن الكريم يقول[1]: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**[2] ﴾. ويقول: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ إن على المجاهدين المؤمنين المتقين الكثير من العمل الحركي والفكري وينتظرهم الكثير من التضحيات وإن لهم في الرسول الكريم

---

(١) سورة النساء ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب ٢١.

والسلف الصالح الأسوة الحسنة. إن هذا هو الطريق الوحيد لاستعادة مجد الإسلام في المستقبل القريب بإذنه عز وجل ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد.

في ضوء ما سبق أن تبين بشأن ماضي المسلمين المجيد وواقعهم الأليم ومستقبلهم الواعد الباسم بإذن الله تعالى نستطيع أن نفهم أن الحرب لا تكاد تضع أوزارها بين المسلمين والخصوم حتى يتأجج أوارها من جديد لأن خصوم هذا الدين يتربصون بالمسلمين الدوائر ويسؤوهم أن يهدأ المسلمون أو يستقروا فضلاً عن استعادتهم لبعض مجدهم الغابر فكيف به كله. وهذا معناه أن على المسلمين أن يكونوا أقوياء دائماً وأبداً قادرين في كل لحظة على الهجوم عسكرياً والدفاع. والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل. قال تعالى: ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾.

وللعلماء آراء متقاربة في وضع الحرب أوزارها نسجل بعضاً منها ففي الجلالين «أوزارها أثقالها من السلاح وغيره بأن يسلم الكفار أو يدخلوا في العهد. وهذه غاية للقتل والأسر». والبخاري في صحيحه يقول[1]: «أوزارها: آثامها حتى لا يبقى إلا مسلم» ويقول الطبري بشأن الأوزار[2]: «آثامها وأثقال أهلها المشركين بالله بأن يتوبوا إلى الله من شركهم فيؤمنوا به وبرسوله ويطيعوه في أمره ونهيه فذلك وضع الحرب أوزارها» ويقول الزمخشري[3]: «أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع. . . وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها وتستقل بها. فإذا انقضت فكأنها وضعتها. وقيل: أوزارها آثامها يعني حين يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا» ويقول

---

(١) ٦ ـ ١٦٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٦، ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) الكشاف ٣ ـ ١٢٨.

أبو حيَّان[1]: «أوزارها أي أثقالها وآلاتها ومنه قول عمرو بن معديكرب:

وأعـددت لـلحـرب أوزارهـا رمـاحـاً طـوالا وخيـلاً ذكـوراً

. . . وقيل: الأوزار هنا الآثام. لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين» وفي تفسير ابن كثير[2]: «وقال قتادة. . . حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ وجاء في تفسير القرطبي[3]: «وقيل معنى الأوزار السلاح فالمعنى شدوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح. وقيل: معناه حتى تضح الحرب أي الأعداء المحاربون أوزارهم. وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. . . .

وقيل: حتى تضع الحرب أوزارها أي أثقالها والوزر الثقل».

فإذا تحولنا إلى القسم التالي في الآية الكريمة: ﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ فإنا بحاجة إلى أن نقف عند اسم الإشارة «ذلك» وهو فيما يبدو راجحاً خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[4]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[5] ويجوز أن يكون مبتدأ. المعنى ذلك حكم الكفار[6] «وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام. وهو كما قال تعالى[7]: ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب** ﴾. أي هذا حق وأنا أعرفكم إن للطاغين كذا»[8].

---

(١) البحر المحيط ٨ ـ ٧٤.
(٢) ٤ ـ ١٧٣.
(٣) ص ٦٠٤٩.
(٤) تفسير القرطبي ٦٠٤٩ وانظر الكشاف ٣ ـ ١٢٨.
(٥) تفسير القرطبي: ٦٠٤٩ والكشاف ٣ ـ ١٢٨ والبحر المحيط ٨ ـ ٧٥.
(٦) تفسير القرطبي ٦٠٤٩.
(٧) سورة ص ٥٥.
(٨) تفسير القرطبي ٦٠٤٩.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يدخل المؤمنون في صراع دائم مع الكافرين: ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ ولقد كان في إمكان الذات العلية لو شاءت أن تنتصر من الكافرين ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾[1] ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو**[2] ﴾ ﴿**وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**[3]﴾. ولكنها شاءت غير ذلك لحكمة أرادها الفعال لما يريد القادر على كل شيء القهار. ويلاحظ أن الآية الكريمة تستعمل صيغة الزمن المضارع «يشاء » دليلاً على شمول المشيئة لكل الحالات وليس للحالة الواحدة التي نحن بصددها كما يلاحظ أن الآية الكريمة تستعمل جملة «انتصر» وليس «انتقم» مثلاً والمعروف أن الجملة الأخيرة تتمشى مع حرف الجر من بينما تتمشى انتصر مع حرف الجر على. وإن إيثار جملة انتصر لحكمة جليلة يمكن أن يعبر عنها بأنها الجملة القادرة على الإفادة بأن أقصى ما يراد من الخصم وهو الانتصار عليه انتصاراً أبدياً أهون الأشياء في حق الذات العلية لو تشاء الانتصار. وإن العدول إلى حرف الجر «من » بدلاً من «على» قادر على تضمين جملة انتصر معنى «انتقم» وبالتالي فإن جملة انتصر تدل على معنيين اثنين وليس على معنى واحد فقط. أما المعنى الأول فهو الانتصار الأكيد الذي لا تدل عليه دائماً جملة «انتقم» فعلى سبيل المثال قد تنتقم من خصمك دون أن تنتصر عليه. والمعنى الثاني هو أن الانتصار على هذا الخصم كان بهدف الانتقام منه بسبب كفره بالله تعالى وبرسوله الكريم وبقرآنه المجيد.

إن بإمكان الذات العلية القادرة على كل شيء والتي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، أن تنتصر من هؤلاء الكافرين الهينين المهينين وقد

---

(١) سورة الفتح ٤.

(٢) سورة المدثر ٣١.

(٣) سورة يس ٢٨ و ٢٩.

أشارت سورة العنكبوت [1] إلى بعض مظاهر الانتصار على الكافرين السابقين قال تعالى: ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾.

ولا يستطيع كفار مكة أن يزعموا أنهم أقوى من عاد التي أهلكها الله تعالى بريح صرصر عاتية تحمل الحصباء عليهم وغير الحصباء. أو أقوى من ثمود التي أهلكها الله تعالى بصيحة واحدة لواحد من جنده هو إسرافيل عليه السلام. أو أقوى من قارون الذي كانت مفاتحة تنوء بالعصبة أولى القوة وبسبب طغيانه خسف الله تعالى به وبداره الأرض أو أقوى من قوم نوح عليه السلام الذين أغرقهم الله تعالى بظلمهم. وفيما يتصل بكفار مكة هل يظنون أنهم بمأمن من عذاب الله تعالى إذا أصروا على كفرهم؟ إليك هذا الحديث من صحيح البخاري [2]: دليلاً على رحمة الرسول الكريم وعلى هوان القوم على الله تعالى. عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب [3] فرفعت رأسي. فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم

---

(١) آية ٤٠.

(٢) ٤ ـ ١٣٩.

(٣) قرن الثعالب هو قرن المنازل بسكون الراء. ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة ياقوت ويسمى حالياً وادي محرم.

الأخشبين [1]. فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون للمؤمنين ابتلاء بالكافرين وللكافرين ابتلاء بالمؤمنين لحكمة يراها الحكيم الخبير. قال تعالى: ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾. وفيما يتصل بابتلاء المؤمنين نستطيع أن نفهم أنواعه في هذه السورة الكريمة ذاتها. فهؤلاء المؤمنون مطالبون حين يلتقون بأعداء الله تعالى أن يطيروا رؤوسهم من على أجسادهم وفي أي المناسبات هم مطالبون بذلك؟ في ميدان المعركة وحين يتفانى كلا الفريقين في إظهار منتهى طاقاته وقدراته. ومعروف أن الوصول إلى هذا المستوى من التمكن من الخصم يلابسه الكثير والكثير من المشاق والتضحيات أعلاها الجود بالنفس في سبيل الله تعالى. وقد قال عز من قائل [2]: ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾.

وحينما يكون المؤمنون حريصين على أن يصلوا إلى أسمى مظاهر الانتصار على الخصوم فإن هؤلاء الخصوم حريصون في المقابل على الشيء ذاته وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة «فيقتلون ويقتلون».

ولا يخفى أن الفرق جوهري بين أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين. ويكفي أن يقال بشأن قتلى المجاهدين في سبيل الله تعالى وقتلى الكافرين إن

---

(١) الأخشبان تثنية الأخشب. جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى وهما واحد. أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان بالضم ثم الفتح بلفظ تصغير سمي بذلك لأن جرهم كانت تجعل فيه قسيها وجعابها ودرقها فكانت تقعقع فيه - ياقوت.

(٢) سورة التوبة ١١١.

المجاهدين في سبيل الله تعالى هم الشهداء الأحياء الذين يرزقون عند ربهم وإن الكافرين في جهنم وبئس القرار. فهذا المصطفى ﷺ وقد انكشف المسلمون في أحد حينما نادى المشركون «يوم بيوم إن الحرب سجال. إن لنا عزى ولا عزى لكم. قال رسول الله ﷺ : الله مولانا ولا مولى لكم. إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون» (١).

وإذا كانت أعمال الكافرين الحسنة قد جعلها الله تعالى هباء منثوراً فكيف بأعمالهم السيئة ضد المؤمنين. وقد جاء في سورة الأنفال (٢) قوله تعالى: **﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون. والذين كفروا إلى جهنم يحشرون. ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾**. وقد جاء في سورة التوبة (٣) في ثواب المجاهدين في سبيل الله تعالى قوله عز من قائل.

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون المؤمنون محل الاختبار والابتلاء وعلى قدر الجهد والمشقة يكون الأجر بإذن الله تعالى لأنهم يريدون وجه الله تعالى بكل

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) آية ٣٦، ٣٧.
(٣) آية ١٢٠، ١٢١.

أعمالهم. كما شاءت إرادة الله تعالى أن يكون المؤمنون أداة العذاب العاجل للكافرين. وقد قال عز من قائل خطاباً للمؤمنين [1]: ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم. أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون** ﴾ وجاء في سورة محمد هذه قوله تعالى: ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾.

وبما أننا بصدد سورة القتال وبما أن السورة الكريمة تطلب أسمى ما يطلب من المجاهدين في سبيل الله أن يضربوا فوق الأعناق ويضربوا منهم كل بنان، ويرتبط بذلك في المقابل شهداء من المؤمنين ومثخنون بالجراح فإن الحديث ما لبث أن توجه إلى هؤلاء المجاهدين في سبيل الله تعالى، من قضى نحبه ومن ينتظر. قال تعالى: ﴿**والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾.. يقول الطبري [2]: «ليبلو بعضكم ببعض يقول: ليختبركم بهم فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق» ونتحول الآن إلى هذه الجزئية الكريمة: ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ ويرتبط بذلك الآيتان الكريمتان التاليتان ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾.

وأول ما نود الوقوف عنده هو جملة قتلوا من قوله تعالى: ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله** ﴾ فالمعروف أن ثمة أربع صيغ تقرأ فيها هذه الجملة.

الصيغة الأولى قتلوا، وهي المتداولة في المصحف المطبوع بضم القاف

---

(١) سورة التوبة ١٤ ـ ١٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨.

وتخفيف التاء. بمعنى والذين قتلهم المشركون ثم أسقط الفاعلين فجعلهم لم يسم فاعل ذلك بهم. وتنسب هذه القراءة إلى أبي عمرو[١] وقرأ بها قتادة والأعرج والأعمش وحفص وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء الجحدري (المراد به عاصم)[٢].

والصيغة الثانية قاتلوا بمعنى حاربوا المشركين وجاهدوهم بالألف وهي قراءة عامة قراء الحجاز والكوفة[٣] وهي اختيار أبي عبيد[٤].

والصيغة الثالثة قتلوا بضم القاف وتشديد التاء بمعنى أنه قتلهم المشركون بعضهم بعد بعض. غير أنه لم يسم الفاعلون. وتنسب هذه القراءة إلى الحسن البصري[٥].

والصيغة الرابعة قتلوا بفتح القاف وتخفيف التاء بمعنى والذين قتلوا المشركين بالله وتنسب هذه القراءة إلى الجحدري عاصم[٦]. وجاء في البحر المحيط[٧]: «وقرأ الجمهور قتلوا بفتح القاف والتاء بغير ألف». وجاء في تفسير القرطبي[٨]: «وقرأ الجحدري وعيسى بن عمرو وأبو حيوة: قتلوا بفتح القاف والتاء من غير ألف يعني الذين قتلوا المشركين».

وتعليقاً على هذه الصيغ الأربع يقول الطبري[٩]: «وأولى القراءات بالصواب قراءة من قرأه: والذين قاتلوا، لاتفاق الحجة من القراء وإن كان لجميعها وجوه مفهومة».

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨ وانظر البحر المحيط ٨ ـ ٧٥.
(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٧٥ وانظر تفسير القرطبي ٦٠٥٠.
(٣) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨.
(٤) تفسير القرطبي ٦٠٥٠.
(٥) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨. وتفسير القرطبي ص ٦٠٥٠.
(٦) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨.
(٧) ٨ ـ ٧٥.
(٨) ص ٦٠٥٠.
(٩) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨.

على أن المسألة الخليقة بأن تؤخذ في الاعتبار هي أنه من المعروف أن جبريل عليه السلام كان يقرىء المصطفى ﷺ القرآن بقراءاته المتعددة وعلى ذلك فإن أول سؤال ينبغي أن نطرحه هو: هل هذه القراءة أو تلك من القراءات المتواترة عنه ﷺ؟ فإن كان الأمر كذلك بمعنى أن جبريل عليه السلام قرأ بها عليه ﷺ. وقرأ بها عليه الصلاة والسلام على أصحابه فلا داعي للقول: إن هذه القراءة أرجح من تلك أو أولى القراءات بالصواب ومنتهى ما يمكن أن يسمح به في هذه الحال هو تبيين المعنى الذي يمكن أن يفهم من هذه القراءة أو من تلك والله تعالى أعلم.

وفي ضوء هذه النظرة، يبدو أن القراءة الأولى الموجودة في المصحف الذي بين أيدينا الآن هي التي تحتاج إلى أن يبين مدلولها في ضوء الآيتين الكريمتين التاليتين ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ خاصة وقد جاء في تفسير القرطبي [1]: «قال القشيري قراءة أبي عمرو قتلوا بعيدة لقوله تعالى: ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ . والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة أو سيهدي من بقي منهم أي يحقق لهم الهداية».

وأول ما نود التنبيه إليه هو أن الآية الكريمة نزلت في يوم أحد وقد فشا في المسلمين القتل والجراحات [2]: عن قتادة: ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ ، ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذٍ «اعل هبل» فنادى المسلمون: الله أعلى وأجل فنادى المشركون: يوم بيوم إن الحرب سجال. إن لنا عزى ولا عزى لكم. قال رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى

---

(١) ص ٦٠٥٠.

(٢) الجلالين.

لكم. إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون. وأما قتلاكم ففي النار يعذبون [1]».

أما وقد عرفنا أن الآية الكريمة نزلت في أحد إذ المعروف أن الرماة الذين كانوا خلف الجيش الإسلامي، أمرهم ﷺ بقوله: «لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم. وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا[2]». فلما لقي ﷺ القوم هزم المشركين «حتى رأيت النساء قد رفعن عن سوقهن وبدت خلاخيلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة! فقال عبد الله «بن جبير أمير الرماة» مهلاً. أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله ﷺ فأبوا فانطلقوا. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأصيب من المسلمين سبعون رجلاً» [3] «فلما أتى المسلمون من خلفهم انكشفوا. وأصاب منهم المشركون. وكان المسلمون لما أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثاً، ثلث قتيل وثلث جريح وثلث منهزم وقد جهدته الحرب حتى ما يدري ما يصنع [4].

ويمكن أن يقال في هؤلاء الذين نزلت فيهم الآيات الكريمات إنهم هم المجاهدون في سبيل الله تعالى حقاً. وبذلك ينطبق في حقهم الآية الكريمة تمام الانطباق قال تعالى: ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله** ﴾ كما يمكن أن يقال إن الذين أثخنتهم الجراح والذين سلموا كان كل منهم أجود الناس بروحه. وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تتخذ من ثلثهم فقط شهداء بينما تبتلى الباقين حتى يعلم الله تعالى علم ظهور المجاهدين منهم والصابرين ويبلو أخبارهم. فحينما تخص الآية الكريمة ـ وفق هذه القراءة قتلوا بضم القاف وكسر التاء ـ الذين قتلوا في سبيل الله تعالى بالذكر فإن لهذه الخصوصية فوائد.

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٨ وانظر تفسير القرطبي ص ٦٠٥٠ والكشاف ٣ ـ ١٢٩.
(٢) الأغاني ١٥ ـ ١٨٦ ودار الكتب.
(٣) الأغاني ١٥ ـ ١٨٦.
(٤) الأغاني ١٥ ـ ١٩٢.

١ ـ التنويه بهؤلاء الشهداء الذين بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله تعالى. وكما قيل: «والجود بالنفس أقصى غاية الجود» وحينما نتبين أن صدر الآية الكريمة يريد من المجاهدين في سبيل الله تعالى منتهى ما يمكن أن يراد من ظفر على الخصم أن يضرب عنق الكافر ويطار رأسه من على جسده فإن الإشادة بالمجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الله يشير في المقابل إلى منتهى ما يستطيع المجاهد في سبيل الله تعالى أن يقدم. إنها روحه التي يبذلها رخيصة في سبيله جل وعلا فحق له أن يشاد به ويكرم.

٢ ـ أما وقد تبين أن ثمة سبباً وجيهاً حقاً للإشادة بالشهيد وأن المجاهد في سبيل الله تعالى عرضة كل لحظة لأن يستشهد أو أن تثخنه الجراحات فيلحق بالرفيق الأعلى شهيداً في سبيل الله تعالى وبما أن منزلة الشهيد هي المرتبة العليا التي يحرص المجاهدون في سبيل الله تعالى على العمل من أجلها فإن في النص على الذي قتل في سبيل الله تعالى شهيداً تغليباً له من أجل عمله الأسمى وحثاً للمجاهدين في سبيل الله تعالى على أن يحرصوا على اللحاق به. فالمعروف أنه لا يتقدم منزلة على الشهيد في الجنة إلا الأنبياء والصديقون. إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في منزلة الشهيد كثيرة جداً. وسنأتي على بعضها قريباً إن شاء الله تعالى.

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية: ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ استطعنا أن نفهم الهداية بشأن الذين قاتلوا في سبيل الله تعالى وصلاح البال في الدنيا والآخرة. كما استطعنا أن نفهم صلاح البال في الدنيا والآخرة كما استطعنا أن نفهم صلاح البال في الآخرة بشأن الذين قتلوا في سبيل الله تعالى فعلاً.

وسبق أن عرفنا أن هذه القراءة والذين قتلوا في سبيل الله إنما غلب فيها بشأن الهداية الذين قتلوا شهداء فعلاً.

فما المراد بالهداية في حق الذين قاتلوا في سبيل الله تعالى؟ معناها أن هؤلاء الذين كانوا مستعدين لأن يبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى وليس وراء الجود بالنفس جود قد تكفل رب العزة بأن يهديهم في هذه الحياة إلى سواء السبيل إكراماً منه تعالى لهؤلاء العباد، وتسديداً منه عز وجل لخطاهم، وأخذاً بأيديهم إلى أقوم سبيل. إن الجهاد في سبيل الله تعالى بمنزلة ذروة السنام من الإيمان كما جاء في الحديث الشريف [1]:

وقد تكفل رب العزة بهداية الذين آمنوا وعملوا الصالحات فكيف بالمجاهدين في سبيل رافعي راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. جاء في سورة يونس بشأن هداية الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات قوله عز من قائل [2]: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾، وجاء في سورة العنكبوت بشأن هداية الله تعالى إلى سبيله الذين جاهدوا فيه جل وعلا. قوله تعالى [3]: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾.

أما صلاح البال في الدنيا فالمراد به صلاح الحال، بمعنى أنهم يحسون في أعماقهم بأن هذه الحياة التي يعيشونها حياة طيبة حقاً لأنهم يسيرون فيها السيرة التي أمرهم بها القرآن الكريم والحديث الشريف فهي ليست أكثر من طريق موصلة إلى الآخرة، الحياة الدائمة الباقية الخالدة، حيث ينتظرهم فيها بإذنه تعالى في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهذا هو صلاح البال في الآخرة وقد عبرت سورة النحل عن صلاح البال في الدنيا

---

(١) جاء الحديث في سنن الترمذي وابن ماجة ومسند الإمام أحمد.

(٢) سورة يونس ٩، ١٠.

(٣) سورة العنكبوت ٦٩.

بالحياة الطيبة. وعن صلاح البال في الآخرة بالجزاء الحسن قال تعالى[1]: ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾.

وإذا كان هذا هو صلاح البال في حق الذين قاتلوا في سبيل الله تعالى ولم تكتب لهم الشهادة فكيف بالمجاهدين في سبيله جل وعلا الذين اتخذهم الله تعالى شهداء؟ لا شك أن الثواب جزيل. وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم وكذلك في الحديث الشريف. إن الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة كثيرة جداً في فضل الشهيد ومن هؤلاء الشهداء من يجري عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال رسول الله ﷺ: «يعطي الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوج من الحور العين ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلي حلة الإيمان[2]. وروى عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك». وفي الترمذي عنه ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين أو أثرين قطرة دمعة من خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله. وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله. وصح عنه أن ما من عبد يموت له عند الله خير لا يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له في الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى وفي لفظ فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة. وقال ﷺ لأم حارثة بنت النعمان وقد قتل ابنها معه يوم بدر فسألته أين هو؟ قال إنه في الفردوس الأعلى وقال: إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى

---

(١) سورة النحل ٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٤ وانظر زاد المعاد ٢ ـ ٧٠ باختلاف يسير (حلبي ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠ م).

تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعةِ فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. . . . وقال ﷺ لجابر ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟ قال بلى. قال: ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب. وكلم أباك كفاحاً. فقال: يا عبدي تمن على أعطك. قال: يا ربي أحيني فأقتل فيك ثانية. قال إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال يا رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** [1] ﴾.

وقال ﷺ لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة. وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد. ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله على رسوله هذه الآيات: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** [2] ﴾. وقال ﷺ لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجتاه كأنهما طيران أضلتا فصيليهما ببراحٍ من الأرض بيد كل واحدة منهما حلة خير من

---

(١) زاد المعاد ٢-٧٠.

(٢) زاد المعاد ٢ ـ ٧٠ وقد أكملنا الآيات وهي من آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١. وانظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٦٠.

الدنيا وما فيها[1]، وفي المستدرك والنسائي مرفوعاً: لأن أقتل في سبيل الله أحب إلي من أن يكون لي المدر والوبر. وفيهما ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة[2].

وفي المسند أفضل الشهداء الذين إن يلقوا في الصف لا يلتفتون حتى يقتلوا أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ويضحك إليهم ربهم وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه[3]. وفي المسند وصحيح ابن حبان القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بماله ونفسه في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذاك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة. ورجل مؤمن فرق على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى لقي العدو قاتل حتى يقتل فمضمضة محت ذنوبه وخطاياه. إن السيف محاء الخطايا وأدخل من أي أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بماله ونفسه حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى يقتل فإن ذلك في النار إن السيف لا يمحو النفاق[4].

وصح عنه ﷺ أنه لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً[5] وسئل ﷺ أي الجهاد أفضل؟ فقال من جاهد المشركين بماله ونفسه. قيل فأي القتل أفضل؟ قال من أهريق دمه وعقر جواده في سبيل الله[6]. وصح عنه ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته يقاتلون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة[7]. وكان ﷺ يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفروا وربما بايعهم على الموت وبايعهم على الجهاد.. وكان يشاور أصحابه في أمر الجهاد وأمر

---

(١) زاد المعاد ٢ ـ ٧٠.

(٢) زاد المعاد ٢ ـ ٧٠.

(٣) زاد المعاد ٢ ـ ٧٠.

(٤) إلى (٧) زاد المعاد ٢ ـ ٧١.

العدو وتخير المنازل [1] وفي المستدرك عن أبي هريرة ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ [2].

وبعد ذكر هذا الغيض من فيض الأحاديث النبوية الشريفة بشأن الجهاد في سبيل الله تعالى وقد تعمدنا الإكثار منها إليك ما يقول الشهيد حسن البنا في رسالة الجهاد [3]. «والأحاديث الكريمة في ذلك وأمثاله وفي غزو البحر وتفضيله على غزو البر بمرات وفي غزو أهل الكتاب كذلك وفي تفصيل أحكام القتال أكثر من أن يحيط به مجلد كبير. وندلك على كتاب «العبرة فيما ورد عن الله ورسوله في الغزو والجهاد والهجرة» للسيد حسن صديق خان. وهو خاص بذلك البحث. وكتاب «منازع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام» وما جاء في كتب الحديث كلها في باب الجهاد ترى الكثير الطيب».

وإذا كنا قد استأنسنا ببعض آيات الذكر الحكيم في فضل الشَّهيد ومنزلته كما نصت على ذلك سورة آل عمران فإنَّ في القرآن الكريم كما هو معروف الكثير من المواضع التي فيها الحث على الجهاد في سبيل الله تعالى ومن ذلك قوله تعالى [4] ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ وقوله تعالى [5]: ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا يشعرون** ﴾ وقوله تعالى [6]: ﴿ **فليقاتلْ في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً**

---

(١) زاد المعاد ٢ ـ ٧١.

(٢) زاد المعاد ٢ ـ ٧١.

(٣) ص ٧٨ وهي ثانية ثلاث رسائل عن الجهاد في سبيل الله الأولى لأبي الأعلى المودودي والثالثة لسيد قطب والنص ص ٧٣ من «الله في العقيدة الإسلامية».

(٤) سورة البقرة ٢١٦.

(٥) سورة البقرة ١٥٤.

(٦) سورة النساء ٧٤ ـ ٧٦.